أصحاب الفيل

نسبهم

هم أصحاب أبرهة بن الصباح أبي يكسوم، ويقال: أبرهة هو الأشرم، سمي بذلك لأنه تفاتن مع أرباط حتى تزاحفا، ثم اتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما، فمن غلب فله الأمر، فتبارزا، وكان أرياط جسيمًا عظيمًا، في يده حربة. وأبرهة قصيرًا حادرًا حليمًا، ذا دين في النصرانية، ومع أبرهة وزير له، يقال له: عتودة. فلما دنوا ضرب أرياط بحربته رأس أبرهة، فوقعت على جبينه، فشرمت عينه وأنفه وجبينه وشفته، فلذلك سمي الأشرم[1].

موقعهم الجغرافي

اليمن، صنعاء[2].

صفاتهم

الكبر، والعدوان.

حياتهم

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل:١-٥].

(١). انظر: تفسير ابن كثير (٤٤٨/٨)، وتفسير القرطبي (١٧٤/٢٠).

(٢). انظر: المرجع السابق (٤٤٨/٨).

إن أبرهة بنى القليس بصنعاء، فبنى كنيسة لم يُر مثلها في زمانها بشيء من الأرض، وكتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك كنيسة، لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب.

فذكر السهيلي: أن أبرهة استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة الخسيسة، وسخرهم فيها أنواعًا من السخر، وكل من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس، يقطع يده لا محالة، وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخامًا، وأحجارًا، وأمتعة عظيمة، وركب فيها صلبانًا من ذهب، وفضة، وجعل فيها منابر من عاج، وآبنوس، وجعل ارتفاعها عظيمًا جدًّا، واتساعها باهرًا، فلما هلك بعد ذلك أبرهة، وتفرقت الحبشة كان من تعرض لأخذ شيء من بنائها، وأمتعتها أصابته الجن بسوء، وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين: كعيب وامرأته. وكان طول كل منهما ستون ذراعًا، فتركها أهل اليمن على حالها، فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح، أول خلفاء بني العباس، فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم، فنقضوها حجرًا حجرًا، ودرست آثارها إلى يومنا هذا.

قال ابن إسحاق: فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي غضب رجل من النسأة من كنانة، الذين ينسئون الشهر الحرام إلى الحل بمكة أيام الموسم. قال ابن إسحاق: فخرج الكناني حتى أتى القليس، فقعد فيه، أي أحدث، حيث لا يراه أحد، ثم خرج فلحق بأرضه، فأخبر أبرهة بذلك، فقال: من صنع هذا؟ فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذي تحجه العرب بمكة، لما سمع بقولك: أنك تريد أن تصرف

حج العرب إلى بيتك هذا. فغضب فجاء فقعد فيها، أي أنه ليس لذلك بأهل، فغضب أبرهة عند ذلك، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، ثم أمر الحبشة، فتهيأت وتجهزت ثم سار، وخرج معه بالفيل.

وسمعت بذلك العرب فأعظموه، وفظعوا به، ورأوا جهاده حقًّا عليهم، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن، وملوكهم، يقال له: ذو نفر. فدعا قومه، ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريده من هدمه وإخرابه. فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له، فقاتله، فهزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ له ذو نفر، فأتي به أسيرًا، فلما أراد قتله، قال له ذو نفر: يا أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيرًا لك من القتل. فتركه من القتل، وحبسه عنده في وثاق، وكان أبرهة رجلًا حليمًا، ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك، يريد ما خرج له حتى إذا كان بأرض خثعم، عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم، وهما: شهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ له نفيل أسيرًا، فأتي به، فلما هم بقتله، قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني، فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم: شهران وناهس بالسمع والطاعة. فخلى سبيله، وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف، خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف في رجال ثقيف، فقالوا له: أيها الملك إنما نحن عبيدك، سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك

خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد، يعنون اللات. إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه، فتجاوز عنهم.

قال ابن إسحاق: واللات بيت لهم بالطائف، كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة. قال: فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة، فخرج أبرهة، ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمس، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك، فرجمت قبره العرب. فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس، وقد تقدم في قصة ثمود: «أن أبا رغال كان رجلًا منهم، وكان يمتنع بالحرم، فلما خرج منه أصابه حجر فقتله، وأن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «وآية ذلك أنه دفن معه غصنان من ذهب». فحفروا، فوجدوهما، قال: «وهو أبو ثقيف»[1].

قلت: والجمع بين هذا وبين ما ذكر ابن إسحاق: أن أبا رغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى، ورجمه الناس، كما رجموا قبر الأول.

قال ابن إسحاق: فلما نزل أبرهة بالمغمس، بعث رجلًا من الحبشة، يقال له: الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مئتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهمت قريش وكنانة وهذيل، ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وقال له: سل عن سيد أهل هذا

(١). سبق تخريجه.

البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأتني به. فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش، وشريفها، فقيل له: عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة. فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال له حناطة: فانطلق معي إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك. فانطلق معه عبد المطلب، ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نفر، وكان له صديقًا حتى دخل عليه وهو في محبسه، فقال له: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك، ينتظر أن يقتله غدوًا أو عشيًا، ما عندي غناء في شيء مما نزل بك، إلا أن أنيسًا سائس الفيل صديق لي فسأرسل إليه، وأوصيه بك، وأعظم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك، فتكلمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك. فقال: حسبي. فبعث ذو نفر إلى أنيس، فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش، وصاحب عير مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رءوس الجبال، وقد أصاب له الملك مئتي بعير فاستأذن له عليه، وانفعه عنده بما استطعت. قال: أفعل. فكلم أنيس أبرهة، فقال له: أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك، وهو صاحب عير مكة، وهو الذي يطعم الناس بالسهل والوحوش في رءوس الجبال. فأذن له عليك فليكلمك في حاجته. فأذن له أبرهة، قال: وكان

عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أجله، وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه، وأجلسه معه عليه إلى جانبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك. فقال له ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يرد عليَّ الملك مئتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتًا هو دينك، ودين آبائك، قد جئت لأهدمه، لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه. فقال: ما كان ليمتنع مني. قال: أنت وذاك. فرد على عبد المطلب إبله.

ويقال: إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة يعمر بن نفاثة بن عدي بن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة سيد بني بكر، وخويلد بن واثلة سيد هذيل، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة، على أن يرجع عنهم، ولا يهدم البيت، فأبى عليهم ذلك، فالله أعلم، أكان ذلك أم لا.

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في رءوس الجبال، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهـــم إن الـعـبـد يمنع رحـلـه فـامـنـع حـلالـك

لا يـغـلـبـن صـلـيـبـهـم ومـحـالـهـم غـدوا محالك

إن كـنـت تـاركـهـم وقبلتنا فـأمـر مـا بـدا لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، يتحرزون فيها، ينتظرون ما أبرهة فاعل، فلما أصبح أبرهة، تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله، وعبى جيشه. وكان اسم الفيل محمودًا، فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه، فقال: ابرك محمود، وارجع راشدًا من حيث أتيت، فإنك في بلد الله الحرام، وأرسل أذنه، فبرك الفيل. قال السهيلي: أي سقط إلى الأرض، وليس من شأن الفيلة أن تبرك، وقد قيل: إن منها ما يبرك كالبعير، فالله أعلم.

وخرج نفيل بن حبيب يشتد، حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا رأسه بالطبرزين، ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن لهم في مراقه، فبزغوه بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعًا إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر، أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين، يبتدرون الطريق التي منها جاءوا، ويسألون عن نفيل بن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن.

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مدة تمث قيحًا ودمًا، حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

فلما بعث الله محمدًا ﷺ كان مما يعد الله على قريش من نعمته عليهم، وفضله ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

فلما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل، بعث عليهم طيرًا، أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجزعة، حجرين في رجليه، وحجرًا في منقاره، قال: فجاءت حتى صفت على رءوسهم، ثم صاحت، وألقت ما في رجليها، ومناقيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحًا شديدة، فضربت الحجارة، فزادتها شدة.

ثم ذكر ابن إسحاق ما قالته العرب من الأشعار في هذه الكائنة العظيمة، التي نصر الله فيها بيته الحرام، الذي يريد أن يشرفه ويعظمه ويطهره، ويوقره ببعثة محمد ﷺ، وما يشرع له من الدين القويم،

الذي أحد أركانه الصلاة، بل عماد دينه، وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهرة، ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش، إذ ذاك على النصارى الذين هم الحبشة، فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها من مشركي قريش، وإنما كان النصر للبيت الحرام، وإرهاصًا وتوطئة لبعثة محمد ﷺ، والله أعلم[1].

العبر والعظات المستفادة

ورود سورة في القرآن تحمل اسم قصة أصحاب الفيل بعدد آياتها القليلة، وعظيم مدلولها، وكبير حدثها، تحمل من العبر والعظات الكثير، ومنها:

١. إرادة الظلم والإلحاد في الحرم، موجبٌ للعذاب.

٢. وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها.

٣. بيان شرف الكعبة التي كانت تعظم حتىٰ من قبل المشركين.

---

(١). انظر: البداية والنهاية (٣/١٣٩-١٥٧).

٤. أن القوة لله جميعًا، وأن قوىٰ البشر مهما عظمت وبلغت تتضاءل أمام قوة الله، وأن البشر مهما تجبروا، ومهما أوتوا من قوة، فهم ضعاف أمام سلطان الله وقوته.

٥. الظلم عاقبته وخيمة، والمظلوم إذا دعا ربّه فإنّه ناصره، ولو كان كافرا.

٦. حفظ الله لبيته الحرام.